فصول ملخصة فى الفلسفة الألمانية

٥ — تطور الحركة الفلسفية فى ألمانيا

شلنج Shelling

١٧٧٥ — ١٨٥٤

للأستـــاذ خليل هنداوى

وهــذا هو « شيلنج » الذى ورث « فيخت » وتبوأ مقعد الفلسفة بعده ؛ درس اللاهوت وألم بالعلوم الطبيعية ووقف على شىء من الطب ، ولكن المزاج الفلسفى غلب فيه على كل مزاج آخر ، فهجر هذه العلوم وآب الى الفلسفة ، فجاءت خطراته الأولى يغلب عليها روح أستاذيه « فيخت » و « كانت » ، ولم يكن لعقله ذلك النضوج وذلك التفكير المستقل اللذان يستطيع بهما أن يطهر فكرته من الصور التقليدية ، ويجعلها ابنة تفكيره الذاتى . ترى آراء « فيخت » شائعة فى هذه المقدمات حتى تقول : « إن فيخت » يمثل دوره كرة ثانيــة . لولا أن شيلنج يفر بفلسفته من « فيخت » الى مذهب القائلين « إن الاله الواحد إنما هو كل الكائنات ... » وقد يستبد شيلنج بهذه الآراء التى رددها ، ويحسب أنها آراؤه الذاتية ، فلا يذكر « فيخت » ولا يزجى اليه برأى ولا حديث ، ولكنه شديد الاحترام للفيلسوف « سبينوزا » الذى أمده بروحه ، وقاد عقله فى كثير من مراحله ؛ وهو الذى أراد أن يستخلص مذهباً يجمع بين فكرة سبينوزا ونقد كانت وكمال فيخت ، وبعد أن رأس المدرسة الفلسفية كتب آراءه ونظراته فى فلسفة الطبيعة حيث شاء أن يعيد العالم الخارجى الى نظامه بعد أن قتلته المدرسة (الكمالية) وشوهت حقيقة مظاهره ؛ ثم أخرج كتابه «مذهب الكمال العالى » وفيــه زبدة مذهبه الفلسفى والصورة الكاملة الحاوية لمذهبه

لم تكن فلسفة شيلنج كفلسفة (كانت) ابنة تأملات عميقة ونظرات متعاقبة ، ولا كفلسفة (فيخت) نتيجة نظرات بعيدة فى الأخلاق والكمال ، وإنما كانت حصاد المخيلة ونتاج الخيال . فكان « كانت » يفكر ويستقصى ويتعمق ويكثر من التأمل ، وفيخت كان يتثبت من صدق الفكرة ثم يأمر ، ولكن شيلنج راح يثبت ما توحى اليه مخيلته وينزل عليه خياله ، وهكذا تطورت الفلسفة وأخذت تلين بعد شدتها وترق بعد صرامتها ، وتزول عنها هذا اللون العميق القاتم ، وتدنو برفق من الشعر والفن ؛ والشعر والفن دائبان عاملان على تلطيفها وترقيقها حتى لا تكون عالة على المخيلة ، ولا تكون المخيلة عالة عليها ، فأمسى الفيلسوف ــ كما تمثله الأقدمون ــ شاهداً ينظر الى تآلف الأشياء وانطباق أجزائها ، وعلاقة النهاية باللانهاية ، والحقيقة بالكمال . وشيلنج يرى أن الفيلسوف لاغنى له عن المخيلة ، وعن الوحى الذى يستمده من نفسه ، وعن الخطرة التى تفيض بها قريحته ، وهو فى هــذه الملاحظات يجمع بين الفيلسوف والفنان برغم اختلاف رسالتيهما ، ولكنه لا يهمل أداة الملاحظة والتأمل اللذين خلقا العالم الفلسفى ، ولكنه لا يميل اليهما إلا قليلاً . ولهذا الاعتقاد الذى وسم مذهبه الفلسفى بميسم الفن رأينا أن فلسفة شيلنج جاءت فلسفة هادئة مسالة لا حركة فيها ولا ثورة

إن « فيخت » برغم ما بذل من جهد استنفد وسعه للعمل على ربط فعّالية عقل الانسان وأخلاقه بوثاق واحد ومذهب

ورماهُ فى ذى الحياةِ ضعيفاً ... أعزلاً بين كلِّ ذى سُلطان
حاملاً كالإلَـه قلباً كبيراً ... فيه مافى الوُجود من أكوَان
فقضاها من الحياة حياةً ... فى عذابٍ ووحشة وامتهَان
وتَردّى ... فقيل كان عظيماً ... أوحقيراً ... واستَقْتَلَ الخصمان
ثم خَطُّوا ضريحه فى خراب ... أو أقاموا تمثاله للعيان
وتغنَّوا بقوله فى هيــام ... أو رَمَوْهُ فى مُوقَد النّيران
ما تراه جَناهُ فالقَــبْرُ راسٍ ... وصدى المجْدِ ضائع فى الزّمان
أيها القَلْبُ ليس فى الأرض حقٌّ ... غيرَ موتٍ تموتُ فيه الأمانى
كلُّ شىء فى مذهب العقل شَكٌّ ... كلُّ شىء يفنَى مع الأزمان
وإذا كانَ منتهى العمر موت ... فلماذا نضيعه فى الأغانى . . ؟
باطلٌ باطلٌ أيا قلب أقْصِرْ ... ما يفيدُ الخلود والدّهر فانى
قال لى القَلْبُ لاهَنِئْتَ بعيشٍ ... أنْتَ والغَمْرُ(١) فيه تَستَوِيانِ

(تونس) محمد الحليوى

(١) الغمر : الجاهل الذى لا تجربة له ولا رأى

واحد ؛ نراه غادر فى مذهبـه هذه (الثُنائية) التى لم يجدها شيلنج صحيحة ، فعالم الروح الداخلى لا يمكننا أن نشاهده ونطلع على غيبه إلا بوساطة العالم الخارجى عنا ؛ كما أن العالم الخارجى لا يُلمس إلا بمعونة عالم روحنا . وهكذا يجد الفيلسوف نفسه أمام مادتين جوهريتين مفترقتين متعاكستين ، فأراد شيلنج أن يمحو هذا التنازع بينهما ، وهو تنازع لم ينكره فيخت ، فتحرى شيلنج فى كلا العالمين عن قانون أعلى يضم بينهما ، فوجد هذا القانون فى الواحد المطلق « L' absolu » مبدأ ومنتهى كل وجود ، وملتقى عالم الحقيقة بعالم الكمال ، والموفق بين الأضداد . وقد أحل مذهبه هذا محل المذهب العلمى ، واعتقد أنه قد وُفّق فى إيجاد الاتحاد المنشود ، وجمع الأجزاء المتفرقة ، وتوحيـد المعرفة الانسانية

وفى الحقيقة إذا تعمقنا فى حقيقة هذا المذهب الذى جاء به شيلنج رأينا أنه هو ذات المذهب الذى يجعل الله هو كل الكائنات ، والواحد المطلق الذى أنشأه وافترضه شيلنج هو هذه المادة الأزلية التى لاحظها وبشّر بها « سبينوزا » ، هذه المادة التى تحل متفقة فى عنصرين متضادين وعالمين مختلفين : عالم الروح وعالم المادة . والصفة البارزة التى يتّسم بها مذهب « شيلنج » هى أنه أنشأ رباطاً محكماً وأوجد وحدة شاملة بين مظاهر الكون المختلفة ؛ فالوجود الحقيق والوجود الروحانى السامى كلها عوالم مشتقة من نبعة الفكرة الالهية ، وهناك شئ من الميل الغريب بين أفكارنا والمرئيات ، فنحن نحمل فى أنفسنا صورة لكل شئ تقع عليه أعيننا ، وهذه الصورة قد لاتلوح فى الذاكرة سريعاً ، ولاتكون وليدة ملاحظاتنا الحينية ، ولكنها ابنة تصور راسخ فينا منذ القدم ، مندس فى شعورنا . فما هو إلا أن نهيب بهذه التصورات حتى نحس أن هذه الصور أخذت تمر بنفوسنا ، فاذا أردنا أن نعرف الكون فما علينا إلا أن نتلقى فى صحف أنفسنا وأن نتبع بنظرنا الباطنى مجرى الأشياء ، وأن نقف على الحكمة المنطقية الالهية التى أبدعت الكون ؛ وهكذا يغدو علمنا مطلقاً وليس له الا صبغة الوحدة المسيطرة على العالم ، وتصبح الفلسفة لا تتوقف على التأمل الذى يلاحظ الأشياء ، ولا يدخل فيها ولا يحبونا إلا بمعرفة جزئية محدودة ؛ وإنما التأمل الحقيق والادراك العقلى يجب أن يكونا قسماً من الخيال النظرى الذى يوحد بين الأفكار ويرتبها ، وإنما غرض الفلسفة أن تعمر الكون وأن تشيده وأن تعمل فى الخليقة على إبداء وجهتها الشعرية والفنية

لم يقف « شيلنج » جهوده على الفلسفة وحدها ، وإنما كان يخوض طوراً فى الفلسفة الكونية والنفسية ، وتارة فى التاريخ والفن ، وهو يفوز فى ساحة ، ويخفق فى أخرى ؛ أما فلسفته النظرية فقد جابهتها الحقيقة مجابهة قاسية ، وعلة ذلك أنه كان يجنح كثيراً إلى الافتراض ، وقد يكون الافتراض أحد العوامل الأساسية فى تقدم العلم ، ولكنه لا يغنى شيئاً فى تحليل المبهمات التى لايتناولها التحليل . وأما نظراته فى التاريخ فسرعان ما وهنت أركانها واضطربت أصولها ، وهو يمشى على أثر « فيخت » الذى قسم العصور الانسانية إلى خمسة أدوار ؛ يبدأ أولها بعصر الانسان الأول الذى لم يدنس عقله ونفسه شئ . وينتهى آخرها بالعصر الذى سيتسامى فيه الانسان وتحمله تأملاته النقية إلى فردوسه المفقود ؛ ولكن « شيلنج » حدد تاريخ الانسانية بثلاثة أدوار

إن عبقرية « شيلنج » لم تبرز واضحة إلا فيما استمده من قلبه وانتزعه من نفسه ؛ وفى مذهبه الذى لم يُوثق فيه خياله بوثاق العقل المحدود ، ولم يجد فى ادنائه من الحقيقة نُكراً . هـــذا المذهب الذى احتوى نظراته السامية فى الفن الذى وجد فيه شيئاً أسمى من الفلسفة . فالفيلسوف قد يُدرك المثل الأعلى ويفهمه ويقف عند ماوصل إليه عقله . أما الفنان فهو يأخـذه ليسكبه فى قوالب مادية ، وهو فى خلقه وابداعه لا يقلد الطبيعة ، ولكنه يقلد ذلك الفكر الجبار الذى أبدع الطبيعة

عنت « لشيلنج » يوم كانت تربطه الصداقة بالشاعر « شيلجل » فكرة شعرية سامية فى مناجاة الطبيعة ، وبدأ يكتب مطلعها ثم بداله شئ صرفه عن فكرته ، وكأن هذه الفكرة الشعرية ظلت راسخة فى تلافيف فكره تتصرف بشعوره وتفكيره حتى إذا نضج عقله وتكشفت فلسفته جاءت وهى أدنى إلى الشعر والفن منها إلى الفلسفة المجردة

يتبع

خليل الهنداوى